المشرق

الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

بحثٌ تاريخي وانتقاديّ للاب لويس شيخو اليسوعي

انّ الآداب كصرحٍ منيف لا تزال ايدي الافاضل تفرغ المجهود في بنائهِ فكلٌ منهم يأتيهِ بحجرهِ ليزيدهُ علوًّا وجمالًا. على انهُ يطرأ على هذا الصرح طوارئ شتّى فطورًا يبسق ويتعالى وطورًا يتخلّف بناؤهُ فيصيب بُناتهُ الخمول ولعلّ صروف الدهر تتحامل عليهِ فتقوّض اركانهُ او تسقطُ بفعل الزمان بعض حجارتهِ.

وكلٌ يعلم ما كان للآداب العربيّة في القرون السابقة من الرونق والبهاء. فترقّت الى اوج عزّها وماست بمفاخرها مدّة اجيالٍ متواليةٍ الى أن خمدت همّة بُناة صرحها حينًا على وفق سُنن الطبيعة التي لا تبقى على حالٍ واحدة كما قال الشاعر:

لكلّ شيءٍ اذا ما تمّ نقصانُ
وهذه الدنيا لا تُبقي على احدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شأنُ

لكنّ هذا الخمول والحمد لله لم يدم زمنًا طويلًا بل كان سباتًا بين يقظتين طيّبتين او شتاء بين ربيعَين كما سترى فازدهرت بعد جفافها شجرة الآداب وراجت بعد كسادها اسواق العلوم حتى بلغت ما نراهُ اليوم من امرها في ظلّ الذات الشاهانيّة ايّد الله شوكتها

ولمّا تنفّس القرن التاسع عشر كانت احوال اوربّة في هرج ومرج والحروب قائمة على ساق بين دولها فلم تحطّ اوزارها الّا بعد نفي بونابرت الى سنت هيلانة. وكان الشرق واصدًا لحركات الدول يتحفّظ ويتصوّن من كل سوء يتهدّدهُ فيستعدُّ للحرب ذبًّا عن حقوقهِ. فكانت هذه الحالة لا تسمح بصرف الفكر الى العلوم والآداب وقد قيل في مثلٍ «انّ الحرب والعلم على طرفي نقيض فان رجح الواحد خفّ الآخر».

ومما قضى حبل الآداب في ذلك العهد قلّة المدارس يتخرّج فيها الاحداث فغاية ما كان يُرى منها بعض الكتاتيب الابتدائيّة لا سيّما قريباً من اديرة الرهبان وكان في الحواضر كدمشق وحلب والاسكندريّة والقاهرة مدارس اعلى رتبةً لكنّها في الغالب كانت محصورة في العلوم الدينيّة وما يُحتاج الى اتقانها من المعارف اللسانيّة كبادئ الصرف والنحو

اما الكتب فكانت عزيزة الوجود اكثرها من المخطوطات الغالية الثمن التي لا يحصل عليها الّا القليلون. وكذلك الطباعة العربيّة كانت اذ ذاك قليلة الانتشار فانّ مطبوعات اوربّة العربيّة لم يكن يعرفها الّا الأفراد من اهل الشرق فضلًا عن انّها كانت موضوعة لمنفعة العلماء اكثر منها لفائدة الدارسين. اما المطبوعات في الشرق فلم يكن يوجد منها الّا في دار السلطنة العليّة وكانت في الغالب تركيّة (اطلب مقالتنا في الطباعة المشرق ٣: ١٧٤—١٨٠) وفي لبنان كانت مطبعة واحدة عربيّة وهي مطبعة الشوير وكانت اكثر مطبوعاتها دينيّة لا مدرسيّة (المشرق ٣: ٣٥٩—٣٦٢). اما مطبعة قزحيا فكانت سريانيّة ولم تتجدّد الّا بعد ثماني سنوات بهمّة الراهب اللبناني سيرافيم حوقا (المشرق ٣: ٢٥١—٢٥٧). وكذلك مطبعة حلب التي كان انشأها البطريرك اثناسيوس دباس (المشرق ٣: ٣٥٥—٣٥٧) فانّها كانت بطلت بعد وفاة منشئها سنة ١٧٢٤. اما مصر فانّها حصلت على اوّل مطبعة عربية قبل القرن التاسع عشر بثلاث سنوات فقط. فانّ اللجنة العلميّة التي كانت في حملة نابوليون كانت أتت بادوات طبعيّة تولّى ادارتها المسيو مرسال (Marcel) ومما طبعهُ بادئ بدء كتاب التهجئة في العربيّة والتركية والفارسية (١٧٩٨) ثم كتاب القراءة العربيّة ثم معجم فرنسويّ وعربيّ ثمّ غراماطيق اللغة المصريّة العاميّة. وفي سنة ١٨٠٠ عاد مرسال الى باريس وجلب مطبعتهُ معهُ ولم يستأنف المصريّون فنّ الطباعة الّا في أيام محمّد عليّ سنة ١٨٢٢. وسنعود الى الكلام عنها

ومع قلّة هذه الوسائل لتحصيل العلوم وُجد قومٌ من الكتبة الذين خدموا في الدواوين المصريّة والشاميّة وكانوا يتولّون قلم الانشاء فيها عند عمّال الدولة العليّة فينالون في الكتابة بعض الشهرة منهم ابراهيم الصبّاغ واولادهُ الذين اثبتنا ترجمتهم في المشرق (٨: ٢٤) وصار ابنهُ حبيب كاتب القلم العربيّ عند احمد باشا الجزّار فتسلّم

دانرتهُ ثم تغيَّر هذا عليهِ فحبسهُ ومات محبوساً . واشتهر المعلم عبُّود البحري واخواهُ جرمانوس وحنَّا عند ابراهيم باشا اوزون القطراغاسي في حلب وفي دمشق ثم عند خلفَيْه عبدالله باشا العظم ويوسف آغا كنج كما ذكرنا في ترجمة والدهم ميخائيل البحري (راجع المشرق ٣ : ٢٠—٢٢) وذكرنا هناك ما كان لكل واحد منهم من الهمَّة في خدمة الدولـة العليَّة واصحابها . اما ابوهم ميخائيل فكان معتزلاً عن الاشتغال في بيروت منقطعاً فيها الى العبادة حتى توفي في اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٠٣ . وقد روينا في ترجمتهِ شيئاً من شعرهِ فانهُ كان رُزق من القريحة والذكاء ما حبَّبهُ الى رجال الدولة وقدَّمهُ في الاعمال وهو لا يزال يُفرغ كنانة الجهد في القيام بالامور وصدق الخدمـة ونشأ اولادهُ على وتيرتهِ وترقَّوا في الرُّتب الديوانيَّة الى ان انتقلوا نحو السنـة ١٨٠٨ الى مصر ونالوا الحظوى لدى امرائهـا (المشرق ٣ : ٢١—٢٢) ومن آثارهم رسائل ومكاتبات واشعار قد تبدَّد اكثرها

وكان في صور ايضاً المعلم حنا عورا من جملة الكتَّاب اخذ عن ابيهِ ميخائيل الذي كان فريدًا في الكتابة يُحسن الانشاء في العربيَّة والتركية والفارسيـة فلمَّا توفي ميخائيل في سنّ الاربعين نال ابنهُ حنَّا رتبتهُ في ديوان الجزَّار ثم عنـد سليمان باشا . واستخدم معهُ ابنهُ ابراهيم الذي توفي بعد سنتين بالطاعون . وبقي حنا من بعدهِ زمناً طويلاً في الاعمال الديوانيَّة . وممَّن خدموا ايضاً في الدواوين في ذلك الوقت الاخوان ابراهيم وخليل النحَّاس ابنا عم حنَّا عورا كتب الاوَّل في عكا والثاني في صور

واشتهر ايضاً بالكتابة في ذلك الوقت غير هؤلاء كميخائيل سكروج واخيهِ بطرس وابراهيم ابي قالوش ويوسف مارون وألياس بن ابراهيم ادَّه الذي دوَّنا سيرتهُ وشعرهُ في المشرق (٢ : ٦٩٣ و٧٣٦) وكذلك فضُّول الصابونجي واخوهُ . خدموا كلهم احمـد باشا الجزَّار وذاقوا حلوهُ ومرَّهُ . وفي عهدهم اشتهر عند المير بشير الشهابي جرجس باز واخوهُ عبد الاحد كما حظي عند المير يوسف الشيخ سعد الخوري

وكان في مصر قوم غير هؤلاء يشتغلون في الدواوين في غرَّة القرن التاسع عشر . الَّا انَّ شهرتهم في الكتابـة كانت دون شهرة السوريين . وممَّن امتازوا اذ ذاك المعلمان القبطيَّان جرجس الجوهري وغالي . فكان الاوَّل رئيس الكتبة في أيام ابرهيم بك وحظي لدى محمَّد باشا خسرو ثم نُكب . وقد ذكرهُ الجبرتي في تاريخهِ عجائب الآثار

وجعل وفاتهُ في شعبان السنة ١٢٢٥ هـ. (١٨١٠). وقام من بعدهِ المعلم غالي وكان زاحمهُ في حياتهِ فصار في خدمة محمّد علي باشا وابنهِ ابراهيم متولّيًا رئاسة الكتابة. وكان من جملة كتّابه قومٌ من نصارى السريين وغيرهم كجرجس وحنّا الطويل والمعلّم منصور صربون وبشاره ورزق الله الصبّاغ والمعلّم فرنسيس اخي المعلّم فلتاؤس. وقد تضعضع امرهم بموت المعلّم غالي الذي قُتل سنة ١٨٢٠

ومما ساعد اهل مصر على صيانة الآداب العربيّة في ظهرانيهم مدرسة زاهرة كان يعلّم فيها نخبة العلماء المسلمين. تزيد المدرسة الازهريّة التي مرّ في المشرق وصفها (٤:٤٩). وكان متولّي تدبيرها في ذلك الوقت الشيخ عبدالله بن حجازي الشهير بالشرقاوي مولدهُ في شرقيّة بلبيس سنة ١١٥٠ هـ. (١٧٣٧) درس في الازهر وانتقلت اليهِ مشيخته سنة ١٢٠٨ وبقي عليها الى سنة وفاتهِ في ٢ شوّال سنة ١٢٢٧ (١٨١٢) ولهُ عدّة تصانيف دينيّة في التوحيد والعقائد والتصوّف. ومن تآليفهِ مختصر مغني اللبيب في النحو ولهُ في التاريخ كتاب طبقات فقهاء الشافعيّة المتقدّمين والمتأخرين وكتاب تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين وقد طُبعت هذه التحفة غير مرّة

ومِمّن اصابوا لهم سمعةً في ذلك الوقت من الازهريين الشيخ محمّد الخالدي المعروف بابن الجوهري فكان اقرأ الدروس في الازهر وطار صيتهُ ووفدت عليهِ الوفود من الحجاز والمغرب والهند والشام. توفّي في ١١ ذي القعدة ١٢١٥ (١٨٠١) وتركتهُ العلميّة كثيرة وانّما مدارها على الفقه ومتعلّقاتهِ خاصّةً

ومن أدباء الازهريين في ذلك العهد الشيخ مصطفى بن احمد المعروف بالعباسيّ لزم شيوخ الازهر وبرع في العلوم الدينيّة واللسانيّة وكان لطيف الذات مليح الصفات محبًّا للآداب لهُ النثر الطيّب والشعر الحسن روى منهُ الجبرتي شيئًا في عجائب الآثار (٣:٣١٣—٣١٥) منها قولهُ في وصف دارٍ ابتناها الجبرتي المذكور:

بناهُ يروقُ العينَ حسنُ جمالهِ ورونقهُ يشفي الصدورَ صدورُهُ
سما في سماء الكون فانتهج العلا برفعتهِ وازداد سرًّا سرورُهُ
ومن مجد بانيهِ تزايد بهجةً وقُلّد من درّ المعالي نحورُهُ
فلا زال فيهِ الفضلُ تسمو شموسهُ وتنمو على كل البدور بدورُهُ
ودام بهِ سعدُ السعود مؤرخًا حمى العزّ بالمولى الجبرتيّ نورهُ (١١٩٣)

ومنهم الشيخ حسين بن عبد اللطيف العُمري الشهير بابن عبد الهادي القادري

الدمشقي الحلوتي لـهُ تأليف في تراجم اسلافهِ العاريين سمّاهُ المواهب الاحسانيَّة في ترجمة الفاروق وذرّيتهِ بني عبد الهادي. توفّي سنة ١٢١٦ (١٨٠١)

ومِمَّن ساعدوا على النهوض الادبيّ في اوائل القرن التاسع عشر رؤساء الطوائف الكاثوليكيَّة الاجلّاء. فكان يسوس الطائفة المارونيَّة البطريرك يوسف التيان الذي كان تخرَّج في مدرسة الموارنة في رومية وبرَزَ بين اقرانهِ في العلوم فلمَّا صار اليهِ تدبير امور الطائفة سعى بتنشيط المعارف بين رعيَّتهِ لاسيَّما الاكليريكيين. ومما عُني بهِ توجيه نظرهِ الى مدرسة عين ورقة التي كان انشأها خلفهُ البطريرك يوسف اسطفان فصارت هذه المدرسة بهمَّتهِ منارًا استضاءت بهِ الأمَّة المارونيَّة في القرن التاسع عشر ومنها خرج العدد العديد من بطاركة واساقفة وكهنة وفضلاء كانوا فخرًا لوطنهم بعلومهم فضلًا عن برّهم وسوف يأتي عنهم الكلام. ولهذا البطريرك آثارٌ لا تزال تدلُّ على طول باعهِ في الآداب الكنسيَّة. توفّي في ٢٠ شباط سنة ١٨٢٠ وكان تنزّل قبل ذلك بعشر سنوات

وكان الروم الكاثوليك خاضعين ايضًا لبطريرك يحبُّ العلوم ويهتمُّ بترقيتها بين طائفتهِ زيد البطريرك اغابيوس مطر وهو الذي انشأ مدرسة عين تراز لتهذيب ابناء ملتهِ في العلوم الاكليريكيَّة سنة ١٨١١ وقد اثبتنا في المشرق (٨:٨٠٥) الرسالة التي وجّهها الى طائفتهِ في هذا الصدد

وكان السريان الكاثوليك في بدء القرن التاسع عشر فقدوا بطريركهم ميخائيل جروه الطيّب الذكر في ١٤ تمّوز سنة ١٨٠٠ (اطلب ترجمة حياتهِ في المشرق ٣:٩١٣) ولهُ الفضل في وضع اساس مدرسة الشرفة وفيها جمع مكتبة حسنة هي الى اليوم من اغنى مكاتب لبنان. ثم خلفهُ اغناطيوس بطرس جروه وكان متضلّعًا بالعلم وهو الذي عرَّب مختصر كتاب اللاهوت النظري والعملي لترما دي شرم في مجلّدين وكتب ترجمة عمهِ ميخائيل جروه ولهُ مواعظ لا تزال مخطوطة (المشرق ٩:٦٩٧)

وكان يرعى الارمن الكاثوليك منذ ١٧٨٨ غريغوريوس الاوّل وكان رجلًا عريقًا بالفضل والقداسة يعرف ما للعلوم من المنفعة لخلاص النفوس فلبلوغ هذه الغاية انشأ في لبنان لطائفتهِ مدرسة في بزمّار كانت بمثابة المدارس التي ذكرناها للطوائف الاخرى وهي لا تزال منذ مئة سنة موردًا يستقي منهُ المرشّحون للكهنوت من الارمن الكاثوليك

وقد ساعدهُ في هذا العمل الخطير القس اندراوس شاشاتي فنظَّم معهُ مدرسة يزمار ورتَّب قوانينها (اطلب المشرق ٩ : ٣٦٦)

وفي اوائل ذلك العصر عينهِ ازداد عدد الكلدان الكاثوليك في العراق على عهد البطريرك يوحنَّان هرمزد . وقد اتاح الله لتلك الطائفة رجلًا غيورًا يُدعى جبرائيل دنبو كان من تجَّار ماردين المتبرين فانشأ في الجبال المجاورة للموصل قريباً من القوش ديرًا جعلهُ كمقام للعيشة النسكيَّة والعلوم معًا . وفيهِ تخرَّج كثيرون من الذين اشتهروا في القرن التاسع عشر بتقاهم وآثارهم العلميَّة بين الكلدان

فترى ممَّا سبق انَّ الله جعل في انحاء الشرق كخميرة بها اختمرت عقول أهل الاوطان فلم تزل تترقَّى الى ان جرت في مضمار الآداب جري المذكيات السوابق (لهُ بقيَّة)

الاسقفيَّات المنوطة بكرسي صور

لحضرة المنوري كبرئيس شارون الزوي الكاثوليكيّ

قد نشرنا في المشرق (٩ : ٣٠٦ ، ٤٠٩ ، ٦٢٠) قائمة مطارنة صور الملكيين فبقي علينا ان نلحق بهِ اسماء اساقفة الكرسيّ المنوطة بهذه المطرنيَّة . اما جدول هذه الكراسيّ الاسقفيَّة فقد نشرهُ العلَّامة گلزر الالماني في المجلَّة البوزنطيَّة (١ عن مخطوط يرتقي الى النصف الثاني من القرن الحادي عشر وهو ادقّ واضبط ما يُعرف لبيان الكراسيّ التي تحت حكمها . ففي هذا الجدول قد ذُكر لرئيس اساقفة صور ثلاث عشر كرسيًّا اسقفيًّا خاضعًا لهُ . لم يبقَ منها اليوم للروم الملكيين الكاثوليك سوى ثلاثة اسقفيَّات وهي عكَّا وصيداء وطرابلس فنذكرها مع اسماء الاساقفة الذين تولَّوا ادارتها ونضيف اليها كرسيَّ جبيل (Βίβλος) والبترون (Βατρύς) اللَّذين دبَّرهما اساقفة ملكيُّون مدَّةً في الاعصار السالفة . اما الروم الارثدكس فانَّهم قد ألحقوا كرسيّ عكَّا ببطركيَّة القدس وجعلوا صاحبهُ مطرانًا منذ القرون الوسطى . وكذلك جعلوا كرسيّ طرابلس مطروبوليتًا وضمُّوا كرسي عكَّار الى جبيل . اما صيداء فقد ضُمَّت الى مطرانيَّة صور

(١ اطلب (H. Gelzer: *Byzantinische Zeitschrift*, I (1892), p. 247-251)